

أهم واجباتنا في سنوات الزواج الأولى

بقلم الكاتبة زينب محمد حسين

لا شك أن سنوات الزواج الأولى هي أدق فترة تستحق منا أن نبذل فيها أقصى ما يمكننا من عناية واهتمام لتكوين حياتنا على النحو الذي نريده ونتمناه ...

ومما لا ريب فيه أن لكل منا حياة تختلف عن حياة الآخر ، من حيث الطباع والعادات ، وطريقة التفكير . ولذلك لا يجب علينا أن نطال النفس عند الزواج ، بأن كلا منا سيجد في شريك حياته مثله الأعلى الذي ينشده في اليقظة والأحلام ، بل أن يعتقد اعتقاداً جازماً بأنه مقبل على انحراج صورته المثالية إلى عالم الحقيقة كما كان يصورها في عالم الخيال ، فيتأهب لكي يكون مثلاً ماهراً ، يضع فكرته السامية في التمثال الحى الذى سوف يعيش معه ويكفيه على النحو الذى يحب ويتمنى .

فاذا لم ينجح في تركيز أفكاره وانقائ صورته في هذا التمثال قلباً وقالباً خلال السنوات الأولى من زواجه ، فليأكد من أنه قد فشل فشلاً تاماً في أداء مهمته حيث لا يمكنه بعد ذلك أن يتناولها بأى تهذيب أو إصلاح .

ولذلك فإن من واجباتنا أن نفكر في حقيقة تلك الخطوة التى نعمل بها حتى نسمو برباطتنا المقدسة إلى حد الكمال .

ولنعد إلى البداية فنقول : أن لكل منا فترة تمر به في مستقبل شبابه يتخيل معها أشياء تتأصل في نفسه تبعاً لبيئته وثقافته وطموحه ، ويتمنى — ويكاد التنى يذهب به بعيداً — أن

تتحقق تلك الخيالات التي رسمها له النطاق الضيق الذي كان يديش فيه قبل أن تطويه الحياة في تيارها وبكاف وسط بلتها . . .

والمرأة في ذلك بالطبع تستوى مع الرجل بل قد تفوقه في أكثر الأحيان ، فهي بحكم طبيعتها الأنثوية المادنة ، خصوصا المرأة الشرقية البعيدة عن غمار الناس وجمتمعهم الصاخب تميل إلى حسن الظن بالأشياء وتصوير الناس في صورة زاهية جميلة .

فهي تتفق السنين في تصوير رجلها المنشود بريشة الكمال المطلق ، حتى لا تكاد تتساق ولو في حقوة بسيطة من دفوات التصوير كي لا تتخدش صورتها الفنية الأنيفة ، ونظل تضيئ عليها من الصفات الجميلة ألوانا فائقة ، ومزايا تتضائل أمامها صفات القديسين والملائكة . وهي بالجملة تصور لنفسها على قدر نفسها تمثالا جميلا تقدره ، ومثلا أدلى تمشي له . وغالبا ما يشط بها الخيال فتصور بطلها فارسا من فرسان ألف ليلة سيختطفها يوما على حصانه الأشهب الجليل ويطوف بها خلال لجنة الفردوس .

ولهذه الخيالات وغيرها من الخطورة أكثر مما لها من الفائدة ، فقد يكون في الخيال عزاء عن الحقيقة ؛ ولكن في مثل حالتنا هذه فالخيال خطر وأى خطر . فالحقيقة تصدمنا في كثير من الأحيان صدمات كثيرا ما يتحطم معها تمثال أحلامنا أو على الأصح تمثال أوهامنا .

فالإنثاء عند ما تنتقل إلى منزل الزوجية قد ترى في بادئ الأمر تحقيقا لخيالها المرسوم يارزا في الصفحات التي يخطها سحر شهور الزواج الأولى ؛ تلك الشهور التي يجتهد فيها الزوج أن يكون كاملا في كل أفعاله وأقواله ، ويعمل جاهدا على ستر نواحي الضعف فيه ؛ ولكنه بعد وقت قصير لا يقوى على الاستمرار ، فتتكشف عيوبه ، وتبجلي تقط الضعف فيه ، وعندئذ تصدم الزوجة بتلك الحقيقة فيتحطم أمام عينها تمثالها المعبود ، وتمتلئ سماء أحلامها غيوما وسوادا .

ولما كان الإنسان من بنى البشر المخلوقين من طين ، وايس من نور كالملائكة . فهو معرض للخطأ والصواب على استعداد للكمال والنقصان ، فيجب إذن أن نلتصم له العذر في نقصانه وأخطائه ، ولكن مع محاولة تقويم اعوجاجه واصلاح هفواته .

ولست ممن يؤمنون بالمستحيلات ، فكما أن الرجل هو الذي يمكنه أن يجعل من امرأته ملاكا ويمكنه أن يخلق منها شيطانا ، فالرأة تتساوى كذلك أيضا مع الرجل في تلك المقدرة ولن يستحيل عليها بقليل من المهارة والحكمة أن ترشد زوجها إلى ما تحب ، وتجنبه ما لا تحب .

فإذا حدث واصطدمت في مستهل حياتها الزوجية بطباع تغاير طباعها ، وبأخلاق قد تتعارض مع أخلاقها ولو إلى حد ما ، فلا يجب عليها أن تترجم أو تياس من ذلك التشويه الذي أترى صورتها مؤقنا ، في الوقت الذي يمكنها فيه بما أوتيت من رقة المزاج ، وجمال التصوير ، أن تهذب من نموذجها وتضفي عليه من خيالها أزهى الألوان وأحبها إلى خيالها المثالي حتى تخلق من زوجها مثلها الأعلى في الحياة .

فمثلا الرجل الذي تعود ترك بيته في المساء ليجتمع بأصدقائه الذين فارقهم في الصباح عملا بنظامه الذي حياته له الظروف قبل الزواج ، تستطيع لروحة القوية الشخصية أن ترغب بظرفها ووداعها على الاستقرار في بيته والتشوق إلى الساعات التي يقضيها بجانبها .

كذلك إذا رأت زوجها ممن يحبذون فكرة الاختلاط بالأصدقاء ، ذلك الاختلاط الذي استحدثته المدنية الزائفة ، والتي كان من أثرها أن تترك جو الأسرة بغيوم أصدقاء السوء ، فيمكنها أن تكون هاديا لزوجها تحمي من الانزلاق في منحدر جلساء السوء ، فتكون له صديقا مخلصا ، ومسامرا ناصحا ، وتعلم جيدا أن صلتها المقدسة تعطيها الحق في الدفاع عن مصالحهما المشتركة التي تجعل منهما نفسا واحدة تهتمهما فائدة واحدة .

وإن كان لوجود الأصدقاء في محيط الأسرة بهجة وسرور في بعض الأحيان فله أيضا خطورته ونتائجه ، وهذا لما يختلط علينا غالبا من التفرقة بين صديق السوء والصديق الوفي تلك التفرقة التي لا يمكننا أن نلمس حقائقها إلا بعد أن نخترق بنيران التجربة . وإلا بعد أن نترك تلك التجربة في أعماقنا أثرا يظل مستمرا ما بقينا في الحياة .

وكلنا يعرف أثر أصدقاء السوء في هدم الكثير من البيوتات الهائلة المستقرة ، ونعرف ما يسببه الاختلاط الكثير بالناس من أسوأ العقبات ، وكما أتمنى لو أمكن لكل امرأة حازمة أن تعمل ما استطاعت على إيجاد الوسط الذي يعيشه زوجها في مملكتها الصغيرة ، وبذلك يمكنها أن تبعد عن جلساء السوء في الخارج وأن تربيه من المسرات الحقيقية ما يريه حقيقة تلك المسرات الزائفة التي يخلقها حوله أناس لا هم لهم إلا تحقيق منافعهم الشخصية واختلاس أمواله بطريقة فنية جريئة لا يشعر بها إلا بعد أن تنقله الديون وتفتح أمامه أبواب الخراب .

ولأصدقاء السوء داخل البيوت أكثر مما لهم خارجها فكثيرا ما كان هؤلاء الأعداء سببا في فشل الحياة الزوجية السعيدة في كل بيت هائى يحاول به بما عرف عنهم من الخاتلة وحب النفاق ، وكما من قلوب تحطمت وبيوت تهدمت بغير سبب إلا وقعة أصدقاء السوء وانحطاط أخلاقهم ، تلك الأخلاق التي لا يتورعون معها أحيانا إذا ما دخلوا منزل زوجين لم يزالا في سنوات الزواج الأولى من أن يتقربوا إلى الزوجة الشابة التي لم تستقر في حياتها

الزوجية بعد ولم تشجع نفسها الصغيرة بعظم واجباتها ومسئولياتها، ويميلون أفكارها بأقوايانهم الملتوية المسترة تحت ستار من الأدب المصطنع ، وتكون النتيجة أن يستأبوا من الزوج الأيمن قلب زوجته كما استأبوا قبل ذلك عتله وأمواله .

وأنى أوجه نظر كل زوج عاقل إلى هذه القطة المهمة فلا يدعو إلى منزله إلا من يثق في أخلاقهم من كرام الرجال كي يأمن على سعادته من الانهيار وأيضا ألا يكثُر من اختلاط زوجته بهم خصوصا في أول سنوات زواجهم لئلا تتعود على ذلك ويصعب عليه ردعها .

وصديقات السوء يتساوين في الأخلاق مع إخوتهن الرجال إن لم يمتزن عنهن ، ولذلك فلتعلم كل زوجة أيضا أنه من أهم واجباتها أن تباعد عن الأخرى عن صديقات السوء من الجارات وغيرهن ، تلك النسوة اللاتي لا هم لهن إلا أن يستغدن أوقاتها في ثروة لا فائدة منها ، وحديث معاد يكون في أغلب الأوقات حديثا مججوجا يملأ عقل الزوجة بالخرافات والأفكار السخيفة التي كثيرا ما تدفعها إلى خلق المشاكل العائلية والنظر إلى حياتها نظرة سخط وتشاؤم فضلا عما يسببه لها هذا الأمر من إهمالها لشئز المنزل أمام اضطرابها للقيام بواجبات الضيافة لؤلء اللأئى لا يفتزن لزيارتهم إلا أشد الأوقات حاجة لاشراف سيدة المنزل على منزلها وقضاء ما يحتاج إلى عنايتها من حوائجه .

حتى إذا ما عاد الزوج إلى منزله مكودا بعد ما لقي في يومه من عناء الأعمال ، آهلا أن يرى في منزله جنة الأحلام وكعبة الأمل ، اصطدمت عيناه بما تقع عليه من إهمال ينفره من البقاء فيه ويخلق بينه وبين زوجته حاجزا من سوء التفاهم يظل يقوى على طول الزمن .

وقد قرأت قصة إنجليزية عن سيدة كانت رقيقة الحال رزقها الله بزواج ثرى أبذل من يومها نعيما ودلا عليها قلب الكثير من السيدات حسدا وبغضا ، فالتفنن حولها مبديات لها الود والصدانة ، حتى خدعتها ظواهرهن ، ففتحت لهن بابها بطرقته في حضرة زوجها وفي غيابه ، وكثر عددن وتمادت الزوجة في دعوتن حتى ازدحمت بهن الدار ليلا ونهارا ، وما أتين مرة إلا وأخذن في الضحك والضحك حتى يمتلئ المنزل بضجيجهن وينشغل الخدم وصاحبة الدار بخدمتن عن أعمالهن المنزلية إلى أن صار المنزل مثلا سيئا للفوضى والاهمال ، فكه الزوج البقاء فيه وصار يرى في المستديات على ازدحامها مكانا أهدأ إلى نفسه وأقرب إلى قلبه من منزل الزوجية ، وزادت تكاليف الحياة أمامه بين طلبات زوجته وحفلات صديقاتها الدائمة وبين تكاليفه خارج الدار ولم ير إلا الطلاق يخلصه من تلك الحالة وكان له ما أراد بعد أن أصرت الزوجة على مسلكها ولم تردع ، وما أن عادت إلى منزل ذويها المتواضع حتى انفض الجميع عن صحبتها ولم تعد إحدى هؤلاء الأفاقات تجود عليها حتى يجرد السؤال .

ومن هذه القصة وغيرها تتضح لنا فائدة الإقلال من الاختلاط خصوصا في سنوات الزواج الأولى حيث يكون الزوجان لم يزالا في حداثة عهدهما بالزواج ولم يستقرا بعد في حياتهما ولم يعرف كل منهما طباع الآخر وعاداته .

وأرى من المستحسن في هذا الأمر أن تجعل الأسرة لها يوما مخصصا للزيارة يحضر فيه من شاء من الأهل والأصدقاء ويأخذوا كانت مواعيد الزيارة فيها بين الخامسة والثامنة مساء . حيث تكون ربة البيت قد فرغت من الإشراف على شؤون منزلها ويكون فيه الزوج قد أخذ جلسده المتعب وقتا كافيا للراحة من عناء الأعمال .

ولا يفتق زوجين في مستهل حياتهما الزوجية أكثر من تلك الزيارات المفاجئة التي يقوم بها أصحابهما كالظائرات المنقضة بغير سابق انذار، وأرى من المستحسن في تلك الحالات أن يعتذر الخدم لهؤلاء السادة بعدم استطاعة أصحاب المنزل استقبالهم حتى لا يلجأوا إلى تلك الطرق الملتوية التي تدل على عدم ميلهم إلى النظام في حياتهم .

وتترك أصدقاء السوء لتكلم عن مدى تدخل الزوجة المنالية في شؤون زوجها وكيف يمكنها أن تصلح من أخلاقه وتقوم أعوجاجه حتى يصير مثلهما الأعلى .

فالمرأة مسئولة عن زوجها كما هو مسئول عنها ، بل من واجبها أن تمده دائما بالموعظة الحسنة ، والبصيرة الناقبة ، والرأى الراجح ، ولتثق أنها بتعاونها في شؤون زوجها قد تحكم على نفسها بالفشل والشقاء .

وليس معنى هذا أن تقيد الزوجة زوجها بقيود حديدية ، وأن تفرض عليه طاعتها كأنه طفل غريب يحتاج إلى الردع والتأديب . فان هذا ولا شك سيشرعه بانتقاص قدره والخط من كرامته ، وهو رب الأسرة الذي من شأنه أن يبدى النصيح لا أن يتلقاه .

هذا إلى جانب ما يتعمل في النفس البشرية دائما من ثورة وتمرد اذا ما شعرت بشبح قيد يحده من حريتها التي لا تعشق في الحياة سواها والرجل والمرأة في هذا الأمر سواء . وهما في ذلك يستويان مع سائر أنواع المخلوقات منذ الخليقة .

فاذا عرف الرجل بأن الزوجة تتداخل في حريته تداخلا يشعره بالقيود ، كان ذلك سببا مباشرا يجعله يعن في غيه ويتمادي في أهوائه .

ومن طريف ما كتبه كاتب كبير - هارب من الزواج - ذات مرة في المرأة التي يتمناها زوجها ، أنه يود ألا تشعره بقيود الزواج ، ومسئوليته ، بل أن تشده اليها ، ولكن بخبط دقيق من الحرير لا تدركه عيناه ، طويل بحيث لا يقف أمام ارادته .

وهي نصيحة ثمينة لا بأس بها من فنان يتكلم عن مثله الأعلى بين النساء .

وان كان البعض يظنها كلمات خيالية فهي مع ذلك بسيطة في الواقع لا تستوجب منا عناء كبيرا في العمل بها للرجل والمرأة على السواء .

فلنفرض أن أحد الزوجين كان أحق بحسب الطبع أو كسولا متبلد المزاج ، أو متلافيا محبا للإسراف . أو ميالا للعريضة ومصادقة خلال السوء أو هذا وذلك من الأشياء الكثيرة التي تجلب سوء التفاهم في محيط الأسرة ، فلا يجب أن يلجأ الإنسان الى المغاضبة والمشاكسة لإرغام الآخر على الاعتدال ، لأنها طريقة شائكة لا فائدة فيها بل يعتمد تولا الى العلاج للتمسك فهو أفضل الطرق في إصلاح هذه الأمور .

فإذا كان النقص مثلا في أخلاق الرجل فلا أسهل على المرأة من أن تلجأ إلى الحيلة واستعمال رقتها الأثرية فيما تريد أن تستكمله في أخلاق زوجها من القائص ، فبلاطمه دائما وتذكره من أن لا تحرجها العظم له وكيف أنها تقتدى بأخلاقه العظيمة في كل شيء لأنه يوجبها وصديقتها ، وتظل تضرب له على مثل هذه النعمة وتشد بالعصاة التي تعجز على أنها صفاته بلهجة طبيعية بعيدة عن التكاف ، ولئلا يشعر بما في كلماتها من مبالغة فيعتقد أنها تهزأ به ، يمكنها أن تقول له في معرض الحديث مثلا بلهجة يجب أن تعتقد هي الأخرى صحتها .

”ولا تعتقد يا عزيزي أن هناك انسانا منزها عن الأخطاء فلكل منا عيوبه ومحاسنه ولا شك أن الأيام نفسها كفيلة بإصلاح نقائص كل انسان خصوصا اذا تزوج وعرف أنه في المستقبل القريب سيكون له أبناء يرون فيه مثلهم الأعلى في الحياة“ .

فإذا سألنا عما ترى فيه من هفوات ادعت بأنها لم تلاحظ ذلك بعد لأنها تحبه ولا ترى فيه إلا رجلا عظيم الأخلاق ، ومن ثم تحاول أن تغير مجرى الحديث .

وتظل بعد ذلك تنتظر بصبر وجلد نتيجة تجاربها النفسية ، وهي تنصرف في بوتقة الأيام ، ذكي ثارها كما خبت ، وتلهب حراوتها كلما ندمت ، حتى تختمر وتتركز ، وهي في كل ذلك تاركة قوعها لنفسه ، ينظر اليها بمنظار الحقيقة ، ويسائلها عن محاسنه وصفاته ، وعن نصيب أخلاقه من الكمال والنقصان ، حتى اذا وجد أن مساوئه تطغى على تلك الحقيقة التي تذكرها زوجته بالعلية القلب ، عمد الى التخلي عن وضع خصاله خشية أن تقف عليها فتغير نظرتها المحترمة له أو تتأثر بها فتسوء العاقبة . واجتهد في انشاء نواحي الخير فيه حتى يكون في المستقبل أبا عظيما جديرا بلقب رب الأسرة ورائدها .

والرجل أيضا عليه هذا الواجب نحو زوجته ان كان الأمر معكوسا ، ولنعلم جميعا أنه لا شيء أعظم أثرا في حل مشكلات الحياة من أخذها بالحكمة والصبر الطويل ما